الدرس الثالث

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

(الحجر: ٢٦-٤٤) .

الخلق المنظور والخلق المستور :

يريدُ الله سبحانه أن يُعرِّفنا بقصَّة الإنسانيَّة ، منذ بدء هـذه الخليقة البشريَّة المكلَّفة ، فقال عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ .

يذكر لنا قصَّة هذين الخَلقَيْن من المُكلَّفين : الخلق المنظورُ والخلق المستور .

الخلقُ المنظور : هم البشر بنُو آدم . والخلقُ المستور : هم الجنُّ أو الجانّ .

كلمة (جنَّ) يعني استَتَر : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ ، أي : استتر في ظلمة الليل ، فالجنُّ هم الخلق المستورون : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف:٢٧)، خلق مُغيَّبون عنَّا ، الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وخلق الجان .

الإنسان المذكور في هذه القصَّة هو آدمُ عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

لم يُذكَر هنا اسم آدم في هذه القصَّة ، ولكنَّ القصَّة كلَّها معروفة أنها لآدم ، وقد ذُكرت هذه القصة من قبل في سورة البقرة ، وذُكرت من قبل في سورة الأعراف ، وذُكرت باسم آدم علانيَّة وصراحة ، وهنا لم يذكر اسم آدم ، ومن المعلوم أنَّ الإنسان الأول هو آدم عليه السلام[1] ، هو الإنسان ، وهو البشر .

بعض إخواننا الذين تحدَّثوا في هذه القضايا ، قالوا : الإنسان شيءٌ والبشر شيءٌ . ولكن القرآن لم يفرِّق بين الإنسان والبشر ، في الآيات التالية يقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر:٢٦) ، فالإنسان هو البشر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ ﴾ : طين يابس ، يُسمع له صَلْصَلة إذا نُقر ، ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ : طين أسود ، ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾[2] : متغيِّر ، أي : تغيَّرت رائحته بعد زمن فتخمَّر ، فالمادة التي خُلق منها الإنسان من الأرض ، فالإنسان خُلق من الأرض ، ويعودُ إلى الأرض ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه:٥٥).

---

(١) قيل : سُمِّي إنسانًا ، لأنه عُهِدَ إليه فنسي ، ودخل من بعده في ذلك ، إذ هو من نسله .
(٢) المسنون أيضًا : المصقول المُمَلَّس .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، فالإنسان مخلوق من جنس الأرض ، من ترابها ومَعَادنها وأملاحها ، لذلك يقولون : إذا تحلَّل جسم الإنسان في القبر ، تحوَّل إلى حُفتات من تراب ، خُلِقنا من التراب ، ونعود إلى التراب .

التوفيق بين الآيات التي ذكرت خلقَ آدم من تراب ومن طين ومن صلصال :

القرآن الكريم أحيانًا يقول : إنَّ آدم خلق من تراب : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:٥٩) .

وأحيانًا يقول : من طين ، كما في سورة ص : ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (ص:٧١) .

وهنا قال : ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، هل هناك تعارض؟

ليس هناك تعارض ، فالتراب إذا نزل عليه الماء أصبح طينًا ، وإذا يبِس هذا الطين يصبح صَلْصالاً ، وإذا تغيَّر وأنْتِنَ ريحه يُصبح حماً ، مرَّت على الإنسان الأول (آدم) هذه الأحوال كلُّها ، ولا مانع من ذلك ، ولكن كلُّ الذي يهمُّنا أنه مخلوقٌ من جنس هذه الأرض .

الإنسان مخلوقٌ ضعيفٌ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، هذا الإنسان مخلوقٌ ، وليس إلهًا كما يريد بعض الفلاسفة الماديين[1] ، يُؤلِّهون الإنسان ، وبعضهم يقول : (الإنسان يقوم وحده) في غير حاجة إلى إله . ورَدَّ علَى هذا الرجل الملحد أحدُ العلماء الغربيين (كريسى موريسون) فـي كـتـاب سمَّاه (الإنسان لا يقوم وحده) ،

(١) هو جوليان هكسلي ، المولود في المملكة المتحدة سنة ١٨٧٧م ، فليسوف ملحد ، توفي عام ١٩٧٥م .

لا يستطيع الإنسان أن يقوم وَحْدَه ، وتُرْجِم هذا الكتاب إلى العربية ، تحت عنوان : (العلم يدعو إلى الإيمان).

هذا يدلُّنا على أنَّ هذا الإنسان مخلوق ، خَلَقه خالق ، وأنشأه مُنْشئ ، لم يخلق نفسه ، والله تعالى يقول : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور:٣٥،٣٦).

قانون العِلِّيَّة :

هل الإنسان خُلِقَ من غير شيءٍ؟ مستحيلٌ هذا ؛ لأنَّ هناك قانونًا فطريًّا وعقليًّا ، يُجْمع عليه كلُّ الفلاسفة والمفكِّرين ، اسمه قانون العِلِّيَّة أو قانون السببيَّة : أنَّ كلَّ معلول لا بدَّ له من علَّة ، وكلَّ مسبَّب لا بد له من سبَبَ ، وكل مُتحرِّكٌ لا بد له من مُحرِّكٍ . كما عبَّر عن ذلك الأعرابي حينما سُئل عن الله ، فقال ببساطته وبلغته الفصيحة : البعرة تدلُّ على البعير ، وخُطُّ السَّيْر يدُلُّ على المسير ، فكيف بسماءٍ ذاتِ أبراج ، وأرضٍ ذاتِ فجاج ، وبحارٍ ذاتِ أمواج ، أفلا يدلُّ ذلك على العليِّ الكبير؟!! .

هذا هو قانون العِلِّيَّة : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ (الطور:٣٥)؟ لا يمكن أن يُخْلقوا من غير شيءٍ ، لا بدَّ من خالق : ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ ؟ هل هم الذين خَلَقوا أنفسهم؟ لا يستطيع أحدٌ أن يقول ذلك ؛ لأنَّ العدم لا يخلق الوجود ، والمخلوق كان معدومًا ، كيف يخلق نفسه وهو عدم؟ ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (الطور:٣٦)؟ السماوات والأرض موجودة قبل أن يُخْلَق ، كيف يخلقها؟ حتى الذين ادَّعوا الربوبيَّة ، مثل : النمرود وفرعون ، مثل هؤلاء ، لم يدَّعوا أنهم خلقوا السماوات والأرض .

فالإنسانُ مخلوقٌ بعد خلق السماوات والأرض ، ولذلك تؤكِّد هذه الآية ، هذه الحقيقة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ ، الله هو خالق الإنسان .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، مُتغيِّر مُنتن الرائحة ، هذا المخلوق العظيم الذي كرَّمه الله ، وسخَّر له ما في السَّماوات والأرض ، مخلوقٌ من هذه المادة الضعيفة الهيِّنة .

خلق الجانِّ قبل الإنسان من نار السَّموم :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، الجانُّ : أبو شياطين الجن ، وإبليس من ذُرِّيَّته .

والجنُّ : خلقٌ مستور عن أعين البشر ، ومنهم المؤمنون الصَّالحون ، ومنهم الشياطين الكافرون ، وهم جنس مُكلَّف مثل الإنس : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) ، هؤلاء خُلقوا من نار السَّموم ، نار حارَّة ، وتحمل السَّموم : الهواء الحار القاتل ، الذي تخترق سمومه المسامَّ[١]. ينفذ إلى مسامّ الجلد ، ومنه : السُّم الذي يخترق مَسامَّ الإنسان ، ويُؤدِّي إلى قتله .

خُلِقَ هؤلاء الجانَّ من نار السَّموم ، أو من مَارجٍ من نار ، ويقول سبحانه عن الجانِّ ، ﴿ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ ، أي : الجانَّ خُلقوا قبل خلق آدم ، الله سبحانه خلق الجنَّ ، وكان لهم في الأرض ما لهم ، ثم خلق بعد ما شاء من ألوف السنين ، أو من ملايين السنين ، الله أعلم .

تحديد عمر الأرض :

هذه الأزمنة الضاربة في أغوار الزمن لا نعلم عنها شيئًا ، ولذلك لا نخوض في تفاصيلها ، البيولوجيون والجيولوجيون يتحدَّثون عن ملايين السنين ، عن عُمر

---

(١) المسام : المنافذ الخفية بين الأشياء ، كمسامّ الجسد ـ وهي مجاري العَرَق ـ جمعٌ مفرده مَسَمّ . وهو اسم مكان من مصدر : سَمه ، أي : غرزه وسَبَره وثقبه . (المفصل في تفسير الجلالين) صـ ٩٥٧ .

الأرض ، وعن عُمر الكون بالملايين والبلايين ، ونحن لا نُصدِّق ولا نُكَذِّب ، وليس عندنا ما ينافي هذا في القرآن ، عندهم في التوراة : أنَّ الدنيا عمرها كلها سبعة آلاف سنة!!

قال الطبري : (زعم اليهود أن جميع ما ثبت عندهم على ما في التوراة ، مما هو فيها من لدن خلق الله آدم إلى وقت الهجرة ، وذلك في التوراة التي هي في أيديهم اليوم أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنتان وأربعون سنة . . . وأما اليونانية من النصارى فإنها تزعم أن الذي ادعته اليهود من ذلك باطل وأن الصحيح من القول في قدر مدة أيام الدنيا من لدن خلق الله آدم إلى وقت هجرة نبينا محمد ﷺ على سياق ما عندهم في التوراة التي هي في أيديهم خمسة آلاف سنة وتسعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة وأشهر)[1] .

وليس عندنا شيءٌ من هذا التَّخريف إطلاقًا ، لا يستطيع أحدٌ أن يقول : عمر الدنيا سبعةَ آلاف ، أو سبعة ملايين ، أو سبعة بلايين . ليس عندنا دليل من القرآن ولا السنة ، وهذا من روائع هذا الدين ، ومن إعجازه : أنَّه لا يوجد فيه شيءٌ ينافى العلم ، لا يوجد فيه أمر قطعي حقيقي ينافى حقيقة علميَّة قاطعة . لقد ذكر لنا القرآن أن عمر فرد واحد من البشر قد بلغ ألف سنة أو تزيد ، وهو عمر نوح عليه السلام ، فماذا تكون أعمار الأمم والقرون في القديم والحديث؟!

الملائكةُ الكرامُ من العالم غير المنظور :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

(إذ) قال العلماء : معناها : اذكر ، ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ ، أي : اذكر ـ يا محمد ـ حينما قال ربُّك للملائكة : ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (ص:٧١) ، وهنا في آية الحِجْر :

---

(١) تاريخ الطبري (١/١٨) ، نشر دار التراث ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ .

﴿ خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، إذ قال ربُّك : خطابٌ للنبيِّ ﷺ بهذا اللفظ ، ربُّك الذي يُربِّيك ويرعاك ويُرقِّيك في مدارج الكمال لا يتخلَّى عنك .

الملائكة : مخلوقات نورانيَّة معصومةٌ مطهَّرة ، وهم أيضًا نوعٌ من الخلق المستور ، من العالم غير المنظور ، هناك ـ كما قلنا ـ عالم منظور نشهده بأعيننا ، وهناك عالمٌ مستور غير منظور لا نراه بأعيننا ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الحاقة:٣٨،٣٩) ، ومالا نُبصره أضعاف أضعاف ما نُبصره ، حتى قال علماء الكون وعلماء الطبيعة : إنَّ الكون الماديّ الذي نعيش فيه ، نحن لا نُبْصر منه بكل أدواتنا إلا ثلاثة في المائة ، وسبعة وتسعون في المائة من هذا الكون المادي لا نعرفها . يُسمُّونها الأعماق السوداء ، لا نعرف عنها شيئًا ، فنحن نرى القليل ، فما بالك بالكون غير الماديّ ، هذا في الكون الماديِّ ، إنَّما الكون غير المادي ، مثل : الجن . مثل : الملائكة ، الذين خُلقوا من نور ، كما في الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها ، في صحيح مسلم : « خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجانُّ من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وُصِفَ لكم »[1] . أي : من طين ، ومن صَلْصال من حمإٍ مسنون ، إلى غير ذلك ممَّا جاء في القرآن الكريم .

فالملائكة مخلوقات نورانيَّة رُوحانيَّة ، الله سبحانه وتعالى فَطَرها على الطاعة : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦) ، ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٧) ، فُطروا على الطاعة ، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٠) .

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦) ، وأحمد (٢٥١٩٤) .

تَسْوية الإنسان ونَفْخ الرُّوح فيه :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [1]

هؤلاء الملائكة قال الله تعالى لهم : ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، هذا البشر المخلوق من الصَّلْصَال ، من الحمأ المسنون ، أو من الطين المنتن ، أو الطين اليابس ، من صَلْصَال كالفخَّار ، هذا المخلوق ، إذا سوَّيتُه ونَفختُ فيه من رُوحي . التسوية تهيئته لما يُعَدُّ له ، للوظيفة التي يقوم بها بعد مرحلة الخلق ، ومرحله التَّسوية ، كما قال عزَّ وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار:٦-٨) ، ثم بعد الخلق التَّسوية : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى:١-٣) ، فالتسوية فرعٌ عن الخلق ، تكملةٌ للخلق : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ ، من تمام الخلق : التَّسوية ، ومن تمام التقدير : الهداية .

تمييز المخلوق بنفخ الرُّوح فيه ، وجهل الإنسان بحقيقة الروح :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾،هذا هو الشيء الذي ميَّز هذا المخلوق، المخلوق الطيني ، المخلوق الترابيّ ، المخلوق الصَّلصاليّ ، المخلوق الحَمَأي ، هذا المخلوق من الأرض ، هذا الذي ميَّزه ﴿ سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [2].

---

(١) سوَّيته أي : أتممته وجعلته مستويًا معتدلاً مستعدًّا لفيضان الروح ، ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ أي : أحييته وخلقتُ فيه الحياة والقدرات الإنسانيَّة .

(٢) قال العلماء : الروح خلقٌ من خلق الله ، يكون وجوده بأمر التكوين المباشر ، دون وساطة أسباب من مخلوق سابق له . أضافه الله سبحانه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ، وعلى معنى الملك ، إذ كلُّ ما خلق الله هو ملكه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾ (العنكبوت:٥٦)، ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (الفجر:٣٠) ، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى ﴾ (الأنعام:١٥٣) . والمعنى : فإذا أتممتُ خلقه ونفختُ فيه روحًا من جنس الروح الذي هو خلقٌ من خلقي ، ومِلْكٌ من مِلكي فقعوا له ساجدين .

كيف تمَّ هذا النَّفخ من الرُّوح؟ بعض الناس يتساءل : كيف يتَّصل الفاني بالباقي؟ كيف يتَّصل المُحْدَث بالأزليِّ؟ كيف يتَّصل المخلوق بالخالق ، أو الخالق بالمخلوق ، كيف يتَّصل هذا بذاك؟ في الواقع لا نعرف كُنهه ، يجب أن نقف عند حدودنا : (من سعادة جَدِّك وقوفك عند حدِّك) . ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء:٨٥) ، إذا كنَّا لا نعرف بعض حقائق هذه الحياة ، لا نعرف ما معنى الحياة الحقيقي ، إنما نعرف آثار الحياة ، ومن آثارها : النمو ، التنفُّس ، التكاثر ، ولكن ما هي الحياة نفسها؟ لا نعرفها ، كما لا نعرف حقيقة الكهرباء ، ولا حقيقة المغناطيس ، ولكن نعرف آثارها .

إذا كنَّا لا نعرف كُنْهَ الحقائق المادِّيَّة ، فكيف نَتطاوَل إلى ما يتعلَّق بالربوبيَّة ، يجب أن نُوفِّر طاقاتِنا العقليَّة ، بدلاً من أن نفكِّر في هذه المسائل ، التي تستنفد منا جهودًا ولا نحصُل على شيء ، ولا نَصل إلى شيء إلا التَّعب والمعاناة ، ثم نعودُ بخُفَّي حنين ، أو بغير خُفَّين ، بلا شيء نهائيًا .

الأَوْلى أن نوفِّر هذا ، نعمل في الكون ، نتأمَّل في الكون ، نكتشف قوانين الكون ، نوجه قوى الكون ، هذا ما وجَّهنا الله تعالى إليه : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف:١٨٥).

كلُّ ما خَلَقَ الله مَجَالٌ للنظر والتفكُّر والتأمُّل ، فنحن نقول :

الله نفَخَ في هذا الإنسان من رُوحه ، كما شاء ، وكيف شاءَ .

سبب أمر الملائكة بالسجود لآدم :

﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (١)

لم يأمرهم بالسُّجود لهذا المخلوق لمُجرَّد تكوينه الهيكليّ والماديّ ، من الطين ، أو الصَّلصْال ، إنَّما أمرهم أن يسجدوا له حينما نَفَخ فيه الرُّوح ، هذا هو

(١) قعوا : أي : انحنوا مُسْرعين ، وعُبِّر عن ذلك بالوقوع للدلالة على سُرعة الاستجابة بالانحناء والتضامن . (ساجدين) منصوب على أنه حال .

الذي كرَّم الإنسان ، هذا هو الذي ميَّز الإنسان ، هذا هو الذي جَعَل هذا المخلوق جديرًا بأن تسجد له الملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ ، فخرُّوا له ساجدين ، كما قال الله تعالى عن إخوة يوسف ووالديه : ﴿ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف:١٠٠) ، أي : لسيِّدنا يوسف .

كيف يسجد مخلوقٌ لمخلوق؟ ربُّنا نهانا أن نسجد لأيِّ بشر ، ولأيِّ مخلوق ، ولكن عالَم السماوات ، وعالم الملائكة ، عالَمٌ غير عالمنا ، ثم إنَّ السجود إذا كان بأمر الله انتهى الأمر ، لم يَعُدْ فيه شِرك ولا شائبة شِرك ، كما نهانا الله أن نقسم بأحدٍ سواه : « مَن حَلَف بغير الله فقد أشرك »[1] .

ولكنَّ الله أقسم بالفجر وما بعده : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (الفجر:١-٥) .

وبالضُّحى وما بعده : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى:١-٣).

وبالعصر : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ (العصر:١،٢) .

وبالليل والنهار وما بعدهما : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ (الليل:١-٤) .

وبالشمس والقمر وما بعدهما : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس:١-٩) .

---

(١) رواه أحمد (٥٥٩٣) ، وقال مخرِّجوه : إسناده ضعيف لجهالة الرجل الكندي ، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين ، وأبو داود (٣٢٥١) ، والترمذي (١٥٣٥) وقال : حديث حسن ، والحاكم (٢٩٧/٤) وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، ثلاثتهم في الأيمان والنذور ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٢) ، عن ابن عمر .

وبالتين والزيتون وما بعدهما : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين:١-٤) ، وأقسم بمخلوقات كثيرة ، ومن حقِّه تعالى إذا أقسم أن يقسم بما شاء ، ولكن نهانا أن نقسم بغيره سبحانه ، ونهانا أن نسجد لغيره سبحانه ، ولكن إذا أمر بعض خلقه أن يسجدوا لبعض ، يجب أن يسجدوا .

سجود الملائكة لآدم :

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

القرآنُ يؤكِّد أنَّ الملائكة لم يَتَخلَّف منهم أحدٌ ، قال تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ، ثم أكَّد هذا . كلمة : ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ ، (كل) للتوكيد . ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ، توكيد بعد توكيد .

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ، لم يتردَّدوا ، ولم يتلعثموا ولم يتلكأوا ، خرُّوا سُجَّدًا بعد أمر الله عزَّ وجلَّ ، اسْجُدوا فسجدوا كلُّهم أجمعون .

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

امتنع إبليس أن يصير مع الساجدين ، في استجابتهم وفعلهم . هذا إبليسُ هو الذي تَمرَّد على ربِّه ، ورفض السجود له .

هل كان إبليس من الملائكة ؟

بعض العلماء قال هذا ؛ لأنَّه أمر الملائكة بالسجود وهو معهم ، فلا بدَّ أن يكون من الملائكة ، ولكنَّ القرآن قال في سورة الكهف : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف:٥٠) ، فليس إذن من الملائكة ، خصوصًا بعد أن ثبت في الصحيح أنَّ « الملائكة خُلقوا من نُور ، وهو خُلق من نار »[(١)] ، فلا يمكن أن يكون من الملائكة ،

(١) سبق تخريجه صـ ٧٩ .

ثم إنَّ الملائكة مفطورون على الطاعة : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٠) ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾(الأعراف:٢٠٦)، إنَّه تَمَرَّد على الله ، فأبى واستكبر ، ورفض وجادل ، تحدَّى الله خالقَهُ ، أبى أن يكون مع الساجدين ، امتنع ورفض[١] .

سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم :

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[٢]

قال تعالى : يا إبليس ، ماالذي يمنعك أن تكون مع هؤلاء الساجدين؟!! وفي سورة الأعراف : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (الأعراف:١٢) ، فإبليس كان عنده أمر ، إما أمرٌ خاصٌ به ، أو أمرٌ مع الملائكة ؛ لأنه كان يعايش الملائكة ، فأصبح كأنَّه واحدٌ منهم . الناس تقول : مَن عاشر القومَ أربعين يومًا صار منهم . وهنا : عاش إبليس معهم آلاف السنين ؛ فكأنه أصبح واحدًا منهم . فما يصدرُ إليهم من أمر يكون هو أيضًا معهم ، المهم أنه عرَف أنه مأمور ، وهو قال هذا : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف:١٢) .

هنا لم يقُل هذا ، ولكن قال : ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر:٣٣)[٣] .

---

(١) إبليس كان مندسًّا بين الملائكة ، وقد وجَّه الله له الأمر بالسجود لآدم معهم ، باعتباره مندسًّا معهم ، ويعدُّ نفسه واحدًا منهم . ودلت عبارة : ﴿ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ على أنه لم يكن من جنس الملائكة ، وأنه كان مأمورًا أن يسجد معهم ولو لم يكن من جنسهم .

(٢) خاطب الله سبحانه إبليس باسمه المعروف به بين الملائكة وبين الجن ، وترفق بمساءلته .

(٣) هذا الردُّ من إبليس يعبِّر عن استكباره وترفعه واستنكافه عن أن يسجد لمن يعدُّه دونه في الخلق ، ويعبِّر عن شكِّه في حكمة الله عز وجل ، واعتراضه عليه ، ولم يذكر إبليس لنفسه عذرًا حقيقيًّا ، بل أجاب بما يكشف عن كِبْره ووقاحته في مخاطبة ربِّه .

انظر كلمة : ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾ ، اللام هنا يُسَمُّونها لام الجُحود ، التي تأتي بعد ما كان ، أو لم أكن ، أو لم يكن ، كقوله تعالى : ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ (النساء:١٣٧) ، أي : ما كان من شأنه ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ (الأنفال:٣٣) ، نفي الشأن . أي : ما كان من شأني ولا يليق بي أن ﴿ لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

إبليس يَتَرفَّع عن السُّجود لآدم ، ويرى أنه أفضل من آدم ، لأنه طينيّ ، وهو ناريّ ، والنار تأكل الطين ، فكيف يسجد الأفضل للمفضول؟

وفي سورة أُخرى : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف:١٢) ، المهم أنه يعترف بأنَّ الله هو خالُقه ، وخالقُ آدم ، ومع هذا يَتَحدَّى الأُلوهيَّة الخالقة ، يرفُضُ أمرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهذه هي المشكلة الإبليسيِّة : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ .

بعضُ العلماء قيل له : هل رأيتَ إبليس؟ قال : ما رأيتُ إبليس ، ولكن إذا رأيتَ مَنْ يقول : أنا . فهو أخو إبليس أو ابن إبليس .

(أنا) النظر إلى النفس بعين الاستعلاء والاستكبار ، وإلى الغير بعين الازدراء والاحتقار ، هذه هي الإبليسيَّة .

لقد زعم إبليس أنه خيرٌ من آدم ، فقال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، ومَنْ قال : إنَّ النَّار أفضلُ من الطين ؟ ربما كان الطينُ أفضل من النار ، الطينُ يُحيي والنار تُميت ، الطينُ يُعمِّر والنَّار تُدمِّر ، صحيحٌ أن كلاًّ منهما له فائدته ، ولا يَخْلُق الله شيئًا إلا وله فائدة ، عَلِمَها مَنْ علمها ، وجَهِلها مَنْ جَهِلها .

حَسدُ إبليس وكِبْره :

ولكن هذا هو جهل إبليس ، وهذا هو الغرور الذي أدَّى بإبليس إلى ما أداه إليه .

الحَسد والكِبْر ، هما اللذان أَفْضَيَا بإبليس إلى هذا التَّمرُّد على الله ، والعصيان لأمر الله ، حَسَدَ آدم على ما فضَّله الله به ، واستكبر كما قال الله تعالى : ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ (البقرة:٣٤) .

وهاتان الخَصْلَتان ـ الحسد والكبر ـ من خصال السُّوء ، مما يُسمِّيه علماء السلوك : المعاصي الباطنة . ويسميها الإمام الغزالي : المهلكات ، وعليها قام الربع الثالث من (الإحياء) .

شرُّ المعاصي التي يقع فيها الخلق ، هي المعاصي الباطنة ، وأقلُّ المعاصي هي المعاصي الظاهرة ، فالمعاصي الظاهرة ليست أخطر المعاصي .

خَطَرُ معاصي القلوب :

أخطر المعاصي : معاصي القلوب : الحسد ، الكِبْر ، الغرور ، الرياء ، حُبِّ المال ، حُبِّ الجاه ، الحقد ، البغضاء ، الغضب ، الكراهية ، وغيرها ، هذه هي معاصي القلوب الخطيرة ، ولذلك كانت معصية آدم من المعاصي الظاهرة ، ومعصية إبليس من المعاصي الباطنة ، معصية آدم كانت الأكل من الشجرة ، وهو أمرٌ حسِّي ، دفعت إليه الشهوة والغريزة ، وغُرِّر به : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه:١١٥) .

أما معصية إبليس هذه ، فهي معصية باطنية مُتحدِّية ، وقف إبليس نِدًّا يعارض ربه ويقول : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ . . . ﴾ ، فكانت أوَّل معصيَّة وقعت في هذا العالم هي معصية إبليس ، وبعد ذلك معصية آدم .

أوَّل معصية هي معصية إبليس لعنه الله : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف:١٢).

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

خروج إبليس من الجنَّة وطَرْده من رحمة الله :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ ، فارقها وابتعد عنها ، أي : من السماوات ، أو من الجنَّة ، ليس لك مكان في الملأ الأعلى الذي فيه الملائكة المُطهَّرون ، الذين ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦)، اخرُج يا إبليس ؛ لأنك تُلوِّث هذا المكان ، ابتعد عن هذا المكان .

﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (١) ، مَرْجومٌ ، مَطْرودٌ من الرحمة والخير والكرامة ، وملعونٌ ، وهذا مقامٌ لا يقوم فيه الملاعين ولا المراجيم ولا المطاريد .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٢) ، تَلْبَسُك اللعنة ، وتَرْكَبُك اللعنة ، واللعنة : هي السَّبُّ والطرد . أنت مطرودٌ من رحمة الله إلى يوم الدين ، لا بقاء لك في عالم المَلَكُوت ، عالم السَّماوات ، عالم الملائكة ، عالم المُطَهَّرين ، عالم

---

(١) رجيم : على وزن فعيل بمعنى مفعول ، أي : مرجوم بالحجارة ونحوها . والمراد : الطرد من منازل الملأ الأعلى .

(٢) قال العلامة الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢٠هـ في كتابه (دُرَّة التنزيل وغُرَّة التأويل) (٧٧١/٢) : قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، وقال في سورة ص : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (ص:٧٨) . للسائل أن يسأل فيقول : إذا كان المراد بـ (اللعنة) و(لعنتي) شيئًا واحدًا ، فما بال اللفظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالألف واللام (اللعنة) ، وفي سورة (ص) مضافًا (لعنتي) ، وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر؟ والجواب أن يقال : إنَّ القصة في سورة الحجر ابتدأت في المعتمد بالذكر ، وهو خلق الإنس والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر:٢٦،٢٧) ، ثم قال : ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٣٢) فكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدأت بمثله القصة ، وهو اسم الجنس المعرّف بالألف واللام (اللعنة) . وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك ، لأن أول الآية : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (ص:٧١) فلم تفتتح الآية بذكر الصنفَيْن من الإنس والجن باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر . ولما كان موضع ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٣٢) جاء بدله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ (ص:٧٥) فجعل بدل (الساجدين) (أن تسجد) ، ثم قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص:٧٥) فخصَّصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بفعله ، أُجري لفظ ما استحقّه من العقاب على لفظ الإضافة ـ يعني في قوله تعالى ﴿ لَعْنَتِيٓ ﴾ ، كما قال : ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ ، فقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ التي افتتحت بها الآية واستمَّرت إلى آخرها . انتهى .

المُقرَّبين ، ليس لك مَوْضعٌ في هذا المكان ، ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، إلي يوم الحساب والجزاء .

هل ظلم الله إبليس أو جزاه بعمله؟ لا ، لم يظلمه ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (فصلت:٤٦) ، إنَّما جَزَاه الله بعمله ، هذا الذي وقف متحدِّيًا للألوهيَّة ، كان لا بدَّ أن يُطْرَدَ من رحمة الله عزَّ وجلَّ ، وأن يعلن بهذه الحقيقة : ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [(١)] .

القرآن الكريم كتاب حوار :

ثم بدأ هذا الحوار بين إبليس والله عزَّ وجلَّ ، ولهذا دائمًا نقول : إنَّ القرآن الكريم كتابُ حوار من الطِّراز الأول : حوار بين الرسل وأقوامهم : ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(هود:٣٢) .

انظر حوارَ سيِّدنا موسى مع فرعون وملئه ، في سورة طه : ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ

---

(١) وفيه إشعار بتأخير عقابه الشديد غير اللعن إلى هذا اليوم ، وأنَّ اللعنة مع شدَّتها ليست وحدها جزاء فعله ، وأنَّ الجزاء الأوفي يناله يوم القيامة ، ومنه الخلود في جهنم . وليس معنى ذلك : أنَّ اللعنة تنقطع عنه إذا جاء يوم القيامة ، بل المراد أنه عند ذلك اليوم يرى من الهول ما تصير معه اللعنة كأنها لا شيء ، وبهذا نعلم أن اللعنة باقية تتبعه في جهنم . فيلعنه كل من فيها ، ويلعنه المؤمنون . كما قال سبحانه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا ﴾ (الأعراف:٣٨) ، وقال عز وجل : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف:٤٤)، وقال عز وجل : ﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا ﴾ (العنكبوت:٢٥)، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ (الأحزاب:٦٧، ٦٨) .

وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . . ﴾ (طه:٤٧-٧٦) ، الآيات .

وفي سورة الشعراء : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . . ﴾ (الشعراء:١٦-٥٠) الآيات ، حوار طويل .

الأنبياء يُحاورون الله سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ...﴾

(هود:٤٥-٤٧) .

والله عزَّ وجلَّ يحاور الملائكة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) .

وأخيرًا نرى حوارَ الله لشرِّ خلقه إبليس ، فتح الباب لإبليس ليحاوره : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر:٣٦-٣٩) فهذا يدلُّنا على أنَّ الحوار في هذا الدين ليس أمرًا غريبًا ، بل هو فريضةٌ في هذا الدين ، وإنَّا مأمورون أن نحاورَ مخالفينا : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥) ، الموعظة الحسنة مع الموافقين ، والجدال بالتي هي أحسن مع المخالفين ، فهذا ما يعلِّمنا إيَّاه هذا القرآن العظيم . فتح الله لإبليس باب الحوار ، لم يغلق عليه الباب ، طَلَب من الله أشياء فأجابها له .

طلب إبليس الإمهال إلى يوم البعث :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

أي : طلب من ربه أن يؤخره ويمهله إلى يوم يبعثون ، يوم يبعث آدم وذريته للحساب والجزاء ، أراد بذلك أن يجد فسحة من الوقت تمكنه من إفساد بني آدم ، فيثأر من آدم وذريته ، وأراد أيضًا أن ينجو من الموت الذي يعمّ كل حي عند النفخة الأولي .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾

أي : إلى وقت النَّفخة الأولى يوم موت الخلائق ، أو إلى ما شاء الله في الوقت المحدَّد ، سينتهي أجله .

ابتلاء الإنسان بتزيين الشيطان وإغوائه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

هذا دلالةٌ على أنَّ هذا الإنسان الذي خلقه الله بيديه ، ونَفَخ فيه من رُوحه ، وأسجد له ملائكَته ، وكرَّمه أفضلَ تكريم ، وخلقه في أحسن تقويم ، هذا الإنسان حياته قائمةٌ على الابتلاء .

نحن ذكرنا أنَّ هذا الإنسان مخلوق ، خَلَقه ربٌّ خالقٌ عظيمٌ ، وليس كما يدَّعي المُدَّعون ، أنه أنشأته الطبيعة ، أو مُصَادفات عمياء ، أو غير ذلك ، لا ، هو مخلوق خلقًا مستقلاً ، يعني لم يتطوَّر عن مخلوق غيره ، كما قالوا : إنَّه تَطَوَّرَ من كذا إلى كذا ، إلى قرد ، إلى إنسان . لا ، هو مخلوق : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) ، ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر:٢٨) فهو مخلوقٌ قَصْدًا واستقلالاً .

وهو أيضًا مخلوق على أساس الابتلاء : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان:٢) ، ومن ابتلاء الله للإنسان : ابتلاؤه بالشيطان ، بهذا العدوِّ الداهية الماكر المتربِّص للإنسان ، لا يغفُل عنه أبدا ، هذا الشيطان إبليس ، حينما أخرجه الله من السموات ، أو أخرجه من الجنَّة ، أو أخرجه من مستقرِّ رحمته ، وخاطبه بقوله : ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، لعنه الله ، ولعنه الناس ، لا يوجد أحد يُلْعن كما يُلْعن إبليس ، فعليه لعنة الله إلى يوم الدين ، هنا قال إبليس : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ إبليس يعترف بربوبيَّة الله عزَّ وجلَّ ، ويعترف بأنَّ الله خالقه : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف:١٢) (ص:٧٦) ، فهو معترفٌ بأنَّ الله هو خالقه ، وخالق آدم ، وخالق الكون ، وأنه ربُّه ، لذلك يقول : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

الباء في قوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ للقسم أو السببيَّة :

(الباء) هنا في ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ ، هل هي للقسم؟ يعني : بحقِّ ما أغويتني . كما قال في سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص:٨٢) ، هل الباء للقسم؟ أي : أقسم بإغوائك إيَّاي لأُزَيِّنَنَ لهم في الأرض . أو الباء للسببيَّة؟ أي : بسبب ما أغْويتني .

الباء تأتي في اللغة العربية للسبب : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ﴾ (المائدة:١٣) ، فبسبب نقضهم . وهنا احتمالان قائمان ، البعض يقول : إنَّ الفعل لا يجوز الإقسام به ، إلا إذا جاء بالصفة . مثل ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ، وهي صفةٌ من صفات الله ، إنَّما بإغواء الله! ولذلك قالوا : لا ، الباء للسببيَّة . أي بسبب ما أغويتني : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، والضمير (لهم)

لذريَّة آدم ، كما قال : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٦٢) ، وكما قال أيضًا في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف:١٦) ، سأقف على الصِّراط المستقيم ، حتى لا يسلك هذا الصِّراطَ أحدٌ .

إبليس قاطع طريق :

فإبليس قاطع طريق ، كما وصفه الله سبحانه : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) ، من كلِّ جهة سأقطع عليهم السبيل ، ﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ : يرغبهم فى الدنيا . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ : يشككهم في الآخرة ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ : يُثبِّطهم عن الحسنات ، ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ ، يرغبهم في السيِّئات . وقيل : لم يذكر جهة فوق ؛ لأنها جهة الرحمة المُنزَّلة من الله ، ولا جهة تحت ، التي هي جهة السجود لله ، كما جاء في الحديث: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[1]. ولكنه قال هنا : سأفعل كلَّ ما أستطيع من كلِّ جهة فهو يبذل جهدَه ، ويكيد كيده للإنسانيَّة ، حتى يُضلَّهم عن سبيل الله .

سُئل الإمام الحسن البصريّ : قيل له : هل ينامُ الشيطان؟ قال : لو نام لاسترحنا[2] . ولكنه لا ينام ، لا يأخذ إجازة ، لا يستريح ، يعمل ليلَ نهار ، وصيفَ شتاء ، في كلِّ وقت ، مُخلصٌ لمُهمَّته في إيذاء الإنسان ، وإضلال الإنسان ، وإغواء الإنسان .

التَّزيين والإغواء :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، هذا عمل الشيطان ، عمله مع الإنسان : التَّزيين والإغواء .

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢) ، وأحمد (٩٤٦١) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥) ، والنسائي في الكبرى في الصلاة (٢٢٧) ، عن أبي هريرة .

(٢) إحياء علوم الدين (٣١/٣) .

يُزِّين للإنسان السُّوء ، ويُجمِّله له ، ويُحبِّبه فيه حتى يراه حَسَنًا : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر:٨) .

يُزيِّنُ له القبائح والمعاصي والشِّركَ، حتى الكفر والنفاق والرياء، كلُّ المعاصي ، معاصي الجوارح ومعاصي القلوب ، يُزيِّنها لهم الشيطان ، ويُحبِّبها إليهم ، ويُحسِّنها لهم .

وبعض الناس - للأسف - يَغُرُّهم تزيين الشيطان : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (النمل:٢٤) ، وهم أهل سبأ الذين كانوا يعبدون الشمس ، كما قال الهدهد : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل:٢٤).

الشيطان يُزيِّن الأعمال تزيينًا ، يُزيِّن الدنيا : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (البقرة:٢١٢).

يُزيِّن الباطل ويُبرزه في صُورة الحق ، يُزيِّن الشيطان الحضارة الحديثة ، يُزَيِّن المنكر حتى يصبح معروفًا ، ويُزيِّن المعصية حتى يُغْرى الناسُ بها ، ولا يشبعوا منها أبدًا ، لأنَّ المعاصي كلَّما ازدَدْتَ منها شربًا ازددتَ لها عطشًا ، فهذا من عمل الشيطان ، تزيين الشيطان ، زَيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم .

الفرق بين الإغواء والإضلال :

فالشيطان يُزيِّن للبشر في الأرض ، ويُغْويهم كما قال : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ ، بعض المفسِّرين يقول : أغويهم أي : أُضِلُّهم . ولكن في الحقيقة القرآن يقول : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (النجم:٢) ، إذن الضلال شيءٌ ، والإغواء شيء ، فالضَّلال يتعلَّق بفساد الفكر والاعتقاد ، والإغواء يتعلَّق بفساد العمل والسلوك ، ولذلك الضلال يقابله الهدى ، والغـي أو الغَوايـة يقابلـها الرُّشد : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (البقرة:٢٥٦) ، فالغَيُّ أن يفسدَ سلوك الإنسان ، أن يَسُوءَ خُلُقه ، فكأنَّ

التزيين يتعلّق بالجانب الفكريّ ، يزيِّن للناس أفكار السُّوء ، ومفاهيم السُّوء ، وبدع السُّوء ، ونظريات السوء ، الذين يتبعون ماركس ، الذين يتبعون فرويد ، الذين يتبعون دوركايم ، فهؤلاء الناس الذين يُزيِّنون الباطل لغيرهم ، فيُسمُّون الماركسيين ، أو العلمانيين باسم فئة النُّخَب المثقفة ، أو صَفْوة المجتمع ، هؤلاء من الذي صنع لهم ذلك ، وزيَّن لهم هذه الأفكار ، فحسبوا الباطل حقًّا ؟

فالتزيين يتعلّق فى الغالب بالجانب الفكري ، والإغواء يتعلَّق بالجانب العملي ، فأفسد عليهم أفكارهم ، وأفسدَ عليهم أعمالَهم ، هذا هو عمل الشيطان : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١).

طموح الشيطان وعلو همته في التزيين والإغواء :

انظر إلى طموح الشيطان وعُلوِّ همَّته في التَّزيين والإغواء ، لم يقل : أُضل مليونًا ولا مليونين ولا ثلاثة ملايين ولا عشرة ملايين . بل قال : ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . يشتغل مع البشر جميعًا ، أبيضِهم وأسودِهم ، عربِهم وعجمِهم ، شرقِيِّهم وغربيِّهم ، كبارهم وصغارهم ، رجالهم ونسائهم ، أغنيائهم وفقرائهم ، حكَّامهم ومحكوميهم .

﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، حتى كلمة في الأرض ، تعنى كلَّ الأرض ، في الأرض كلِّها ، ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

المُستَثْنَون من تزيين الشيطان وإغوائه :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

يقول الإمام الرازي(٢) : إن إبليس لم يرضَ أن يكون كاذبًا ، فيدَّعي أنه يضلُّ الناس جميعًا ويغوي الناس جميعًا ،فاستثنى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾،

---

(١) أي : كلهم في كل زمان ومكان .

(٢) في تفسيره (١٦/١٦٨) .

هؤلاء لا أقدر عليهم . وهذا دليل على خساسة الكذب حتى عند إبليس نفسه ، فإبليس نفسه لم يُرِد أن يكون كذَّابا .

قال : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ . وفي قراءة من القراءات السبعة : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلِصِينَ ﴾[(١)] ، الذين أخلصوا دينهم لله ، أو الذين أخلصهم الله لدينه وهداهُم واصْطفاهم ، فهؤلاء لا أستطيع أن أغويهم . كلتا القراءتين لها معناها ، وبينهما تكامل فكري .

أثر الإخلاص في العمل :

معنى (المخلِصين) الذين وُصفوا بالإخلاص ، والإخلاصُ : تصفية العمل من كلِّ شائبة ، فلا يكون العمل إلا ابتغاء رضوان الله عزَّ وجلَّ ، لم يعمل العمل لأيِّ غرضٍ من الأغراض ، لا ليُرضي الناس ، لا ليراه الناس ولا ليحمدوه ، ولا للشُّهرة ولا للمال ولا للجاه ولا للمنصب ، لا تدخل الدنيا بكلِّ أعراضها ، بكلِّ زخارفها ، بكلِّ ما يحرص الناس عليه فيها ، لا يدخل شيءٌ من هذا في نيَّته وفي هدفه ، حينما عمل ، وهذا هو الإخلاص .

الإخلاص - كما قال الجُنيد - سرٌّ من الأسرار ، لا يطَّلع عليه مَلَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسُده ، ولا هوى فيميله[(٢)] .

الإخلاصُ سرٌّ بين العبد وبين ربِّه ، حتى قال بعض السلف : طُوبى لمَن صحَّت له خُطوة لا يريد بها إلا وَجْهَ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٣)] .

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب : (المُخْلِصين) بكسر اللام ، أي : الذين يُخلصون لك الإيمان والعمل ، فأنت تحميهم من الغواية بسبب إخلاصهم لك ، وقرأها باقي العشرة : (المُخْلَصين) ، أي : الذين تستخلصهم وتصطفيهم ، فتعصمهم من الغواية . ينظر : معجم القراءات القرآنية (٢/٢٥٤) .

(٢) مدارج السالكين (٢/٩٢) .

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٣٧٨) .

وكلٌّ منا يسأل نفسه : هل أنا أُريد وَجْهَ الله؟ لا بدَّ أن نُفَتِّش فى أنفسنا ، ونقول : هل هذا العمل لوجه الله ، أو فيه شائبة من شوائب الدنيا؟ هكذا يجب على الإنسان أن يرصد نفسه ، يراقب نفسه ماذا في نفسه من الرغبة الحقيقية في رضا الله ، والرَّغبات الأخرى التي تدخل عليه ، وكثيرٌ من الناس لا يراقب نفسه وأعماله ، ويظنُّ أنها لله ، وهي ليست لله سبحانه .

إخلاصُ الدين لله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، حينما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:١٤٥،١٤٦) ، أخلصوا دينهم لله ، فالإخلاص أن تُخلص دينك لله ، أو يُخْلِصَك الله لدينه : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، أو ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلِصِينَ ﴾ . هذا ما قاله إبليس ، فبماذا ردَّ الله تعالى عليه؟

الطريق الموصل إلى الله :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، هذا طريقٌ واضح ، قال : ﴿ عَلَىَّ ﴾ بمعنى إليَّ ، أي : يوصل إلى طريق مستقيم مُسدَّد لا خَلَل فيه ولا إخْلال ، هذا الإخلاص ، إخلاصُ الدين لله من العبد ، أو إخلاص اللهِ العبدَ لدينه ، هذا هو الطريق المستقيم الموصِّل إلى الله عزَّ وجلَّ ، فليس هناك طريقٌ موصِّل إلى الله أعظم من الإخلاص لله تبارك وتعالى ، وإخلاص العبد لدينه .

سُنَّة الله في حفظ عباده المُخْلَصين من الشيطان :

وهناك رأيٌ آخر في معنى الآية : ﴿ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، هذا طريقٌ متَّبع عندي ، سُنَّة من سُنني ، من هذه السُّنن : أني لا أُمكِّن الشيطان من عبادي المُخْلِصين المُخْلَصين .

﴿ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، ما : هو الصِّراط المستقيم؟ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ ، أطاعك وانقاد لك ، ﴿ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ .

هناك قراءة قرأ بها بعض السَّلف ، ومنهم يعقوب ، وهو من القُرَّاء العشرة أنَّه قرأ : (هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ[1] مُسْتَقِيمٌ)، لأنَّ الصِّراط عليٌّ رفيعٌ ، أي : رفيع المنزلة ، ومستقيم لا عِوَجَ فيه ولا أمْت ، هذا صراطٌ عِليٌّ مستقيم . المهم هذا الصَّراط ، وهذه السنة ، أو هذه الطريقة : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ .

المراد بالاستثناء في قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾

هل الاستثناء هنا في قوله : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ استثناء متَّصل؟ أم استثناء منقطع؟

البعض يقول : إنه استثناءٌ منقطع . إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان قط ، ليس لك سلطان على أحدٍ من عبادي ، إلا من اتبَّعك من الغاوين ، أنت ليس لك سلطان عليهم ، إنَّما تُوسوس لهم ، فيتَّبعك بعض الناس ، إنما ليس لك قدرة عليهم ، كما سبق أن ذكرنا فى تفسير سورة إبراهيم : حينما ذكرنا قول الشيطان يوم القيامة :

---

(١) بكسر اللام ورفع الياء وتنوينها ، من العُلو ، أي : رفيع ، وقرأ الباقون : (عَلَيَّ مستقيمٌ) بفتح اللام والياء من غير تنوين . ينظر : النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري (٣٠١/٢) ، ومعجم القراءات القرآنية (٢٥٤/٣) .

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(إبراهيم: ٢٢) .

ليس للشيطان سُلطان يؤثِّر به على العباد ، لأنَّ الذي اتَّبع إبليس ، اتَّبعه باختياره ، ولم يقهره إبليس على شيء ، دَعَاه ووسوس له ورغَّبه في السيئات ، وثَبَّطه عن الحسنات ، فاستجاب له ، فهم الذين اتَّبعوك ، هؤلاء الغاوون هم الذين اتَّبعوك ، وأنت ليس لك عليهم سلطان ، هذا إذا قلنا : إنَّ الاستثناء منقطع .

معنى الاستثناء المنقطع في اللغة العربية ، إذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه ، نقول عنه : استثناء متصل ، مثل : حضر القوم إلا إبراهيم ، إبراهيم من القوم ، إنما تقول : حضر القوم إلا حمارهم ، حمارهم ليس من القوم ، فنُسمِّيه استثناءً منقطعًا ، ولكنَّ حمارهم لم يحضر ، فالاستثناء المنقطع بمعنى الاستدراك . لكن إذا قلنا : إنه منقطع نقول : إبليس ليس له سلطانٌ على أحدٍ . وإذا قلنا : إنه متَّصل نقول : إنَّ له سلطانًا على هؤلاء الغاوين .

والمراد : بالإغواء : القدرة على إغوائهم ، وإبعادهم عن صراط الحقِّ والهدى ، ولعلَّ هذا معنى يُؤيِّده قول الله تعالى في سورة النحل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾(النحل: ٩٨-١٠٠)، فله سُلطانٌ إذن حسب هذه الآية على مَنْ يَتولَّونه .

النجاة من كيد الشيطان :

اللهُ سبحانه وتعالى قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ ، فعبادُ الله ، المُخْلِصون أو المخلَصون؟ ، ليس للشيطان عليهم سبيلٌ ، كاد لهم ، ولكنَّهم نَجَوا من كَيْده بذكر الله عزَّ وجلَّ ، بالاستعاذة بالله من شرِّ الشيطان

وهَمْزه ونفثه ونَفْخه : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون:٩٧،٩٨) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾

(الناس:١-٦) .

آخر سورة في القرآن سورة الناس ، كلُّها قائمةٌ على الاستعاذة من هذا الوسواس الخنَّاس . خنَّاس أي : يَخْنِس ويختفي ويهرب . إذا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَنَس الشيطان ، ولذلك هو يستحوذ على الناس بأنْ ينسيهم ذكرَ الله : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (المجادلة:١٩)، إنَّما حزبُ الرحمن حزب الله : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة:٢٢)، هؤلاء لا يقدر عليهم الشيطان .

قال النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجنّ » .

قالوا : وإيَّاك ، يا رسولَ الله ؟

قال : « وإيَّاي ، إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »(١) . حتى الشيطان يمكن أن يُسْلِم .

لم يخلق الله تعالى مخلوقًا شرًّا محضًا :

وربُّنا لم يخلق مخلوقًا شرًّا محضًا ، يستحيل أن يخلق الله شرًّا محضًا ، الشرُّ المحض ليس من صُنع الله عزَّ وجلَّ ، الأصل كما قال الله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران:٢٦) ، وكما قال النبيُّ ﷺ : « الخير كلّه في

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٤) ، وابن حبان في التاريخ (٦٤١٧) ، والطبراني في الكبير (٢١٨/١٠) ، عن عبد الله بن مسعود .

يديك ، والشرُّ ليس إليك»[1] . فما نراه من شرٍّ فهو شرٌّ جزئيٌّ ، وإضافي ونسبي ، وهو ضروريٌّ لأشياء أخرى .

فالمطر ينزل أحيانًا ينفع كثيرًا من الناس والأحياء ، ويصيب بعض الأشياء ، ويضرُّ بعض الأشياء ، لكنّ هذا ليس مقصودًا ، المقصود إحياء الأرض بعد موتها واستفادة الناس ، فكونه يضر أشياء هذا من لوازم الخير .

فالله لم يخلق شرًّا محضًا ، فكلُّ ما خلقه الله تعالى لحكمةٍ عظيمةٍ ، ولا تعجب ـ أيها القارئ الكريم ـ إذا علمت أنَّ الشيطان ، حتى الشيطان نفسه فيه خير ، وحتى إبليس نجد أنه في خطاب الله عزَّ وجلَّ ، نجد فيه بعض الأدب ، ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ ، اعتراف بالربوبية ، ونحو هذه الآيات فيها دليل على أن الله لم يخلقه شرًّا ، فقد ظلَّ آلاف السنين يتعبَّد مع الملائكة ، ثم أصابته هذه النكسة المهلكة .

سبب إيقاع إبليس لآدم وذريته في الزلل :

هنا سؤال : قد يُقال : إذا كان الشيطان ليس له سلطانٌ على عباد الله المُخلِصين كيف أزلَّ آدم وزوجه؟ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ ، أزلَّهما حتى أكلا من الشجرة ، حتى حدث ما حدث .

وكيف أزلَّ الصحابة في غزوة أحد؟ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٥٥) .

وحتى الأنبياء ، سيدنا موسى لما وَكَز الرجل فقضى عليه : ﴿ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (القصص:١٥) ، وقد كان وقع هذا قبل البعثة؟

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١) ، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢) ، عن علي بن أبي طالب .

نقول : إنَّ الشيطان ، ليس له سلطانٌ على المُخْلِصين ، أي : ليس له سلطانٌ على قلوبهم ، بحيث يستولي على قلوبهم ، ويصرِّفها كيف يشاء ، أو ليس له سلطانٌ بحيث يوقعهم فى ذنب لا يُرجى العفو منه ، لا يستطيع أن يوقعهم في الشرك والعياذ بالله ، أو شيء من هذا ، إنما الوقوع فى بعض الذنوب التي تُمحى بالتوبة والاستغفار هذا قد يقع من المخلصين .

سيدنا موسى قال : ﴿ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص:١٥-١٧) .

وسيدنا آدم : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢١،١٢٢).

وسيدنا نوح قال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (هود:٤٧) .

وسيدنا يونس قال : ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٧) .

فالإنسان يمكن أن يغلب الشيطان بالتوبة ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ إبليس قال لربِّه عزَّ وجلَّ : وعزَّتك وجَلالك لا أبرح أُغْوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال له ربُّه عزَّ وجلَّ : فبعزَّتي وَجَلالي ، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني »[1] . أنت تُهلكهم بالذنوب ، وهم يهلكونك بالاستغفار ، أغفر لهم ما استغفروني .

---

(١) رواه أحمد (١١٣٦٧) ، وقال مخرِّجوه : حسن ، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٦١/٤) وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٢/٨) ، عن أبي سعيد الخدري .

موعد الغاوين في جهنم :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)

هؤلاء الغاوون الذين اتَّبعوا غَواية الشيطان ، وتزيين الشيطان ، وساروا في رَكْب الشيطان ، مصيرُهم إلى جهنَّم ، دار العذاب في الآخرة ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص:٨٥) ، مصيرُهم إلى جهنَّم ، إنَّ جهنَّم لموعدهم ، مكان لقائهم ، الموعد هنا : اسم مكان ، وأحيانا الموعد اسم زمان : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ (طه:٥٩) الموعد : اسم زمان ، ﴿ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هنا الموعد : اسم مكان ، سيلتقون في وقت التقائهم في جهنم : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : كلهم مجتمعين لا يتخلَّف منهم أحد .

أبواب جهنَّم وأبواب الجنَّة :

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

جهنَّم لها سبعة أبواب ، كلُّ باب له طائفة سوف تدخل منه ، وهو مميز عن غيره . وأما الجنَّة ففيها ثمانية أبواب ، كما جاء في الصحيح : « ما منكم من أحدٍ يتوضَّأ فيبلغ ـ أو فيسبغ ـ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فُتِحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل مِنْ أيِّها شاء »(٢) .

---

(١) جهنم : اسم علم من أسماء دار العذاب التي أعدها الله ليعذب فيها الكافرين المجرمين والعصاة يوم الدين . ولفظ (جهنم) ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . ويقال للقعر البعيد : (جهنم) ويقال : بئر جهنم أي : بعيد القعر .

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٤) ، وأبو داود في الطهارة (١٦٩) ، والنسائي في الطهارة (١٤٨) ، عن عقبة بن عامر .

وجاء في الصحيح :« في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يُسمَّى الريَّان ، لا يدخله إلا الصَّائمون »[١] .

فالجنَّة فيها أبواب ، والنار فيها أبواب ، وكلُّ باب له نصيبه ، كم مليون ، أو كم مليار ، أو كم تريليون ، أو كم دشليون ؟ لا نعرف أعداد الذين سيدخلون إلى جهنَّم ، إنما كلُّ باب له جزءٌ مقسوم .

طبقات جهنم ودركات الكفار فيها :

بعضُ السَّلف فسَّر الأبواب بأنها الطباق[٢] ، في كلِّ باب ، أي : في كلِّ طبقه[٣] ، فالنار طبقات بعضها فوق بعض متوالية في المراتب[٤] ، أو دركات كما جاء في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾ (النساء:١٤٥).

إذن يوجد درك أسفل ، ودرك أعلى ، وأدراك متوسطة بين الأسفل والأعلى ، وهذا معقول ؛ لأنَّ النَّاس ليسوا سواسية فيها ، فهناك الكافر ، وهناك الكافر الظالم : الذين كفروا وظلموا ، أو الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴾ (النحل:٨٨) ، فساد هذا ليس في نفسه ، بل أفسد غيره .

الإنسان الظالم الذي ذَبَح من البشر من ذبَح ، ذبَح آلافا من الناس ، أو ملايين من الناس ، من المستضعفين والمظلومين ، هل هذا الكافر يتساوى مع الكافر

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) كلاهما في الصوم ، كما رواه أحمد (٢٢٨١٨) والترمذي في الصوم (٧٦٥) عن سهل بن سعد .

(٢) جمع طبق ، أي : طبقة .

(٣) ويمكن التوفيق بين القولين : أنَّ الأبواب مداخل إلى جهنَّم ، وكلٌّ من مطيعي إبليس يدخل من باب بحسب عمله ، وهو يوصله إلى الدرك المناسب له . ينظر : تفسير ابن كثير (٥٣٢/٢) .

(٤) وهو قول كثير من المفسِّرين ، جعلوها سبع طبقات متوالية ، هي جهنَّم ، فلظى ، فالحطمة ، فالسعير ، فسَقَر ، فالجحيم ، فالهاوية . وجهنم إحدى هذه الطبقات وأولاها ، ولكلِّ فئةٍ من مطيعي إبليس طبقة .

أو الفاسق الذي فسق في نفسه ، وشرب الخمر ، وارتكب الزنى ، وعمل المعاصي ، دفعته شهواته وضعفه إلى مثل هذا ، هل هذا مثل ذاك ؟

اختلاف أنواع العذاب في جهنم :

ولذلك يقول الله تعالى عن آل فرعون : ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ (غافر:٤٦) ، فهناك عذاب شديد ، وهناك أشدُّ العذاب .

هدَّد الله سبحانه الذين طلبوا من سيدنا عيسى المائدة ، فقال تعالى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة:١١٥) ، بعد ما طلبتم المائدة وجاءتكم من السماء ، ثم تكفرون بعد ذلك ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، فأنواع العذاب تتفاوت ، كما أنَّ درجات النعيم تتفاوت .

درجات النَّعيم في الجنَّة :

القرآن ذكر لنا في سورة الرحمن : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٤٦) ، وذكر لنا ما في الجنَّتين من نعيم ، ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٦٢) ، النبيُّ عليه الصلاة والسلام قال : « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنّة ، وأعلى الجنة ، فوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »[1] .

فالجنَّة تتفاوت في درجاتها ، والنَّار تتفاوت في دَرَكاتها .

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل . وارزقنا الفردوس الأعلى .

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) ، وابن حبان في السير (٤٦١١) ، والبيهقي في السير (١٨٢٧٥) ، عن أبي هريرة .